

مسوحات وتنقيبات جامعة الخرطوم الأثرية في شمال - غرب أم درمان (1973 - 1991م)

قسم الآثار - كلية العلوم الانسانية
جامعة بحري

أ.د. عبد الرحيم محمد خبير

مستخلص:

تحتوي هذه الورقة البحثية على نتائج المسوحات والتنقيبات الأثرية التي أجراها قسم الآثار بكلية الآداب، جامعة الخرطوم لفترة تقارب العقدين من الزمان (1973 - 1991م) بشمال غرب مدينة أم درمان. وتمتد منطقة إمتياز العمل الآثاري من وادي سيدنا جنوبا إلى خور الدشينا (شمال جبل أم مرحي) شمالا. ويحدها من الشرق نهر النيل وغربا سلسلة جبال كرري، المرخيات والقيسي. تتشكل جيولوجيا هذه المنطقة من الصخر النوبي (Nubian Sandstone) المتعري الذي تعلوه طبقات صخور القاعدة الأساسية (Basement Complex) البازلتية وتختلط بالحصى والرمال المختلفة النعومة. وهذه المنطقة تعج بآلاف المواقع الأثرية لمختلف الحقب التاريخية. وخصصت هذه المنطقة لتدريب طلاب تخصص علم الآثار بجامعة الخرطوم. كما كانت مكانا لمادة علمية أثرية لطلاب الدراسات العليا. وكشفت نتائج الأعمال الأثرية المتعاقبة بمنطقة شمال غرب أم درمان عن وجود مواقع ومستوطنات تغطي عصور ما قبل التاريخ والفترات التاريخية اللاحقة (عصر مروي وما بعده).

Archaeological Surveys and Excavations of the University of Khartoum in the northwest of Omdurman (1973–1991 AD)

Prof. Abdelrahim Mohamed Khabir Hassan

Abstract:

The present paper sets forth the results of the surveys and excavations undertaken by the department of Archaeology, Khartoum University for nearly two decades (1973-1991). The concession of the University extends from Wadi Seydna in the south to Khor el-DeShainab in the north of Omdurman. It is delimited by the Main Nile to the east and a series of hills (Kara-ri, Al Merkhayat and al-Gaissi) to the west. The geology of this region is composed of eroded Nubian Sandstone overlain by Basement Complex and mixed with pebbles and sands with varied sizes. The whole area is littered with thousands of sites covering different periods. It is designed as a training-ground for the undergraduate and graduate stu-

dents of Archaeology in the University of Khartoum. The results of the subsequent works have brought to light sites and relics of historical importance spanning a long period of time from the prehistoric times to the historic ones (Meroitic and post-Meroitic periods).

العمل الأثاري بمنطقة أم درمان التاريخ والأهداف:

يشمل البحث إضافة إلى الأدبيات المنشورة، نتائج المسوحات والحفريات الأثرية في شمال مدينة أم درمان في فترات مختلفة خلال حقبة السبعينات والثمانينات ومطلع التسعينات من القرن المنصرم (-1973م). ويلزم التنويه إلى أن مشروع العمل الأثاري لجامعة الخرطوم في منطقة شمال -غرب مدينة أم درمان قد بدأ عام 1973م مترافقاً مع البدايات الأولى لنشأة قسم الآثار بالجامعة. وأشرف على هذا العمل المسحي والتنقيبي عالم الآثار السوداني الأستاذ الدكتور أحمد محمد علي الحاكم (رحمه الله). ولد في بلدة السلمة بريفي بربر عام 1938م، نشأ وترعرع في مدينة عطبرة حيث تلقى دراسته الأولية والمتوسطة والثانوية بها، تخرج بمرتبة الشرف العليا في جامعة الخرطوم عام 1963م حيث كان أول سوداني يعين في وظيفة مساعد تدريس (معيد) في تخصص علم الآثار الذي كان حينها يدرس بقسم التاريخ بالجامعة. إبتعث بعدها إلي بريطانيا حيث حصل علي درجة الماجستير من جامعة كمبردج عام 1966م، عاد بعدها محاضراً بالجامعة لحاجتها للكفاءات السودانية آنئذٍ ورجع مرة أخرى إلي بريطانيا لمواصلة دراسته العليا في جامعة كمبردج حيث حصل على درجة الدكتوراه عام 1971م وكانت أطروحته عن «طبيعة وتطور العمارة المروية 900م-350م» (The Nature and Development of Meroitic Architecture) وبرجوة تولي رئاسة قسم الآثار بجامعة الخرطوم خلفاً للدكتور عبدالقادر محمود عبدالله. والدكتور أحمد الحاكم هو عضو هيئة التدريس الذي تولي رئاسة القسم لعقد كامل من الزمان (1971-1981م) فتخرجت علي يديه الأفواج الأولى من حملة الشهادات الجامعية وفوق الجامعية في تخصص علم الآثار من جامعة الخرطوم والتي تدير الآن دولا العمل الأثاري بكفاءة واقتدار في العديد من المؤسسات البحثية والتعليمية داخل وخارج الوطن . وحاز علي مرتبة الأستاذية عام 1988م. من جامعة الخرطوم. وتولي البروفيسور أحمد الحاكم إدارة العديد من البعثات الأثرية في السودان حيث عمل في مطلع حياته الأكاديمية نائباً للبروفيسور البريطاني بيتر شيني (المدير الأسبق للآثار في حكومة السودان 1948-1955م) في إدارة التنقيبات المشتركة بين جامعتي الخرطوم وغانا عام 1966م في منطقة مروي (البحر الأحمر)، تولي بعدها إدارة تنقيبات جامعة الخرطوم في مناطق متفرقة من السودان شملت شمال غرب أم درمان (وادي سيدنا- الشيخ الطيب)، البجراوية (كبوشية)، وادي حلفا وكردفان (جبل الحرازة) والبطانة ومنطقة البحر الأحمر. وكان الهدف من مشروع شمال غرب أم درمان تدريب طلاب الجامعة على التطبيقات العملية للعمل الأثاري من مسوحات وتنقيبات والتي تشكل جزءاً أساسياً من متطلبات المنهج الدراسي المقرر. وتشمل هذه التدريبات العملية : نظم المسح والحفر والرسم والتصوير والتسجيل الأثاري. وبعد أن شب قسم الآثار بجامعة الخرطوم عن الطوق أصبحت منطقة تنقيبات شمال غرب أم درمان أحد الروافد الأساسية لمشاريع البحث الأثاري لطلاب الدراسات العليا حيث شهدت تنقيبات لمواقع تؤرخ لفترات تاريخية مختلفة شكلت مادة علمية ثرة لبحوث تخرج طلاب البكالوريوس ولرسائل ماجستير داخل السودان (جامعة الخرطوم) (Magid1982and El-Hassan2006, Khabir1981)

وبحوث دكتوراه خارجه (جامعات كمبردج ووردينق وبيرجن) (Mohamed-Ali 1982, Babiker 1984 and Magid 1989) لكوادر سودانية تأهلت بشكل متميز وتدير الآن دولا العمل الأثري بجدارة وإستحقاق داخل الوطن وخارجه.

تقع منطقة التنقيبات الأثرية لجامعة الخرطوم شمال وغرب مدينة أم درمان وتمتد من وادي سيدنا جنوباً إلى خور الدشينا شمال جبل أم مرحي. وتحده المنطقة من الجهات الغربية والجنوبية جبال كرري، والمعقل والقيسي والمرخيات، وحدها الشرقي نهر النيل. وتقع المنطقة برمتها على هضبة جيولوجية عتيقة متعرية من الصخر الرملي النوبي (Nubian Sandstone) تعلوها طبقات متباينة من الحصى والرمال الخشنة والناعمة، فضلاً عن تناثر بعض المنكشفات الصخرية من حجر البازلت على مدى البصر (أنظر الخارطة: شكل 1).

عصور ما قبل التاريخ:

وتجد الإشارة إلى أن الأعمال الأثرية الرائدة في هذه المنطقة إبتدتها عالم الآثار البريطاني المعروف أ.ج. آركل A.J. Arkell الذي عين أول مدير لمصلحة الآثار السودانية (1938-1948م). وشملت هذه الأعمال مسوحات أثرية لمواقع العصر الحجري القديم في وادي سيدنا وخور أبوعنجة فُصِلت نتائجها في كتابه الموسوم بـ «العصر الحجري القديم في السودان الإنجليزي-المصري - Old Stone Age in the Anglo-Egyptian Sudan». ويصل تاريخها بالمقارنة مع نظائرها في مواقع أخرى بشمال السودان (جزيرة صاي) إلى 300.000 ق.م. وتلت ذلك أعمال تنقيب في مواقع مهمة تشمل الشهبان (1953م) والسروراب 1 (1982م) والسروراب 2 (1978م). فموقع الشهبان الذي يرجع للعصر الحجري الحديث قام بحفره أنطوني آركل عام 1949م ونشرت نتائجه بين دفتي كتاب معنون بـ «شهبان Shaheinab» عام 1953م. أما موقع السروراب 1 فقد نقبه عباس محمد علي كجزء من عملة الميداني لدرجة الدكتوراه بجامعة كمبردج ونشر رسالته في «سلسلة التقارير الأثرية البريطانية B.A.R.» (Mohamed-Ali 1982). وهناك موقع السروراب 2 الذي يؤرخ لحضارة الخرطوم الباكورة وقام بالتنقيب فيه صاحب هذا المقال إستكمالاً لأبحاثه في دراسات ما قبل التاريخ في إقليم الخرطوم. (1978-1980م) (Khabir 1981) التي نشرت نتائجها في دوريات علمية متنوعة بأوروبا وأمريكا الشمالية وبعض الأقطار العربية. وثمة إشارة هنا، وهي أن الموقع الأموذجي لهذه الحضارة تم التعرف عليه في حفرة سابقة للآثري آركل (1949م) وهو مستوطنة ترجع للعصر الحجري الوسيط (Mesolithic) تحتل مكان مستشفى الخرطوم التعليمي الحالي. ومن نتائج حفرة هذا الموقع الأموذجي موجودات حضارية حجرية وعظمية (لحيوانات وأسماء) علاوة على فخاريات ذات زخارف متموجة (Wavy lines) تمثل السمة المميزة لهذه الحضارة والتي وجدت مستوطنات تشابهها في العشرات من الأماكن المتباعدة جغرافياً، شملت وادي النيل ومنطقة البحيرات الإستوائية وشمال أفريقيا وغربها. وربما كان ذلك بدواعي إتصال حضاري مباشر أو غير مباشر، حيث أن الظروف الجغرافية المطيرة في عصر الهولوسين كانت مواتية للتنقل والتداخل الحضاري عبر بقاع شاسعة. وكان القاسم المشترك لهذه المستوطنات المنتمية لحضارة الخرطوم الباكورة هو إشتراكها في قيم ومفاهيم جمالية عبرت عن نفسها بصورة جلية في نماذج مميزة من صناعة الفخار وزخرفته بطرز متفردة أبرزها الطراز ذو الزخرفة المتموجة المتصلة

. وهذا التجانس القيمي والجمالي يعضد فرضية مؤداها أن هذه المستوطنات المتباعدة الأطراف تمثل أمودجاً لمنطقة ثقافية مشتركة بؤرتها إقليم الخرطوم خلال المرحلة المتأخرة لحقبة ما قبل التاريخ في أفريقيا(خبير10-11:2005). وأكدت لنا حفريات موقع السروراب - 2 (قرية الباعوضة) عام 1978م والتي أشرف عليها كاتب هذه المساهمة وبالدليل اليقيني أن أقدم صناعة للفخار في أفريقيا قد بدأت في أم درمان قبل ما يزيد عن عشرة ألف عام من الوقت الحاضر (Cal. 8625±165B.C.). وقد قام بمعايرة Calibration التاريخين (7380±90 ق.م؛ 7420±80 ق.م)(Khabir1987:377-380) المعطاة للموقع وهما لعينات فحم حجري من المربع رقم 27 للطبقتين الثالثة والخامسة على التوالي الزميل الأستاذ الدكتور أزهرى مصطفى صادق(أستاذ الآثار بجامعة الخرطوم) بجامعة هامبورج(ألمانيا) (لوحات:3-1). وعثر على فخاريات في كل من موقع جبل أم مرحي بشمال أم درمان (Elamin and Mohammed Ali 2004:97-110) والسقاي في الضفة الشرقية لنهر النيل (Caneva 1983:149) ذات تواريخ شبيهة وإن كانت تقل بدرجة ملحوظة عن موقع السروراب -2 في أواسط البلاد. وتجدد الإشارة إلى العديد من مواقع العصر الحجري الحديث (3200-4500 ق.م) في شمال أم درمان (إسلانج ، النوفلاب ووادي سيدنا) وجنوبها(الصالحه) تم الكشف عنها خلال العقدين الماضيين. (Khabir 2008:33-42 and Salvatori et al 2014:243-270)

المجموعات النوبية وممالك كوش:

تشير الكشوفات الآثرية بشمال أم درمان إلى أدلة لحضارات يرجع بعضها إلى الألفين الخامس والرابع قبل الميلاد. فهناك مواقع لمستوطنات ومدافن بجزيرة إسلانج والنوفلاب والباعوضة (Khabir2008:33-42) عثر فيها على أدوات حجرية وعظمية وفخاريات وخرز ومشغولات من الألباستر (المرمر) والزجاج لها ما يناظرها في حضارات المجموعات النوبية (A&C)(1500-3900 ق.م) بشمال السودان وجنوب مصر، فضلاً عن حضارات كوش (كرمة ونبتة ومروي) (2500 ق.م - 350م) (Hakem1979:151-155). ولعل من المظاهر اللافتة للإنتباه في تنقيبات شمال أم درمان الأعداد المبهولة من الجبانات ومقابر التلال (Tumuli) التي تعود للفترة المتأخرة لما بعد مروي والعصور الوسطى المبكرة (350-543م). وأطلق نفر من علماء الآثار على الموجودات الحضارية لهذه المقابر التلية «ثقافة تنقاسي» نسبة إلى الموقع الأمودجي لهذه الثقافة الذي يقع على بعد 400 ميلاً في شمال السودان. ويربو عدد المقابر التي تؤرخ لـ «ثقافة تنقاسي» عن أربعة آلاف تل أثري. وتتعدى هذه المقابر منطقة شمال أم درمان بمختلف الإتجاهات. ففي جنوب أم درمان أجرى باحث الآثار السوداني الرائد عبد الرحمن آدم (رحمه الله) حفريات جنوب منطقة الفتيحاب (العشرة) بالإشتراك مع الآثاري البريطاني كنيث مارشال. ونشر تقرير عن هذه الحفريات بمجلة الآثار السودانية (كوش - Kush) ، العدد الأول عام 1953م (Marshall and Adam1953:40-46). وعثر على ما يماثل هذه المقابر التلية في كل من الهوبجي بالقرب من شندي وتنقاسي على مقربة من كريمة. ومن أهم سمات هذه المقابر أنها دائرية الشكل يعلوها الحصى والتراب من الخارج. ويبرز المخطط الداخلي لهذه المقابر أنها على هيئة حدوة الحصان (Horse-Shoe). ووجدت بداخلها هياكل عظمية لأفراد من مختلف الأنواع (الجندر) والأعمار وكلهم من عامة الناس. ويلحظ أن المتوفي يوضع بشكل ممدد (Extended) في أغلب المدافن. أما المقابر التي يوضع فيها المتوفي جاثماً بإنحناءة (Crouched) فهي نادرة. ويضم الأثاث الجنائزي الأواني الفخارية وخرز الفيانس

الأزرق وخرز قشرة بيض النعام والأسورة البرونزية ورؤوس السهام الحديدية ودبابيس الصيد والآنية والأدوات الزجاجية وغيرها. ولوحظ أن نذراً يسيراً من المقابر التي تنسب لـ «ثقافة تنقاسي» ذات شكل يشبه الطوة (المقلدة) أو بياضوي له ما يماثله في حضارة البان قريف (Pan-grave) في النوبة السفلى قبل ما يزيد عن 1500 سنة خلت (ibid:152-154). وباجالة النظر في عادات الدفن الجنائزية التي وجدت في المقابر التالية يلحظ أنها ترجع للفترة المتأخرة لحضارة مروي وما بعدها في شمال أم درمان (موقع أمرحي نموذجاً). وقد عرفت سابقاً بأسماء متعددة منها «تلال فخار علوة؛ حضارة تنقاسي؛ شبه المروية وما بعد مروي (El-Has san2006:15-38) (لوحة:4). ونلاحظ أنها متماثلة بدرجة كبيرة مع تلك التي تم التعرف عليها في شمال كردفان وفي المنطقة الممتدة من نبتة إلى الخرطوم، الجزيرة فسنار وجبل موية (إقليم النيل الأزرق)، فضلاً عن تشابهاتها التي لا تخطئها العين مع المعثورات الحضارية لذات الفترة التاريخية على إمتداد إقليم النيل الأبيض. وقد أدى ذلك إلى إفتراض إنها تمثل مجموعة ثقافية واحدة عادة ما توصف بـ «ثقافة تنقاسي» (Hakem1979:154-155) (لوحات:5-6). وفي العهد التركي-المصري (1821-1885م) الذي إستمر ماينيف عن ستين عاماً تشير نتائج تنقيبات جامعة الخرطوم أن أم درمان كانت تتكون من العديد من القرى المتفرقة ، بنيت مساكنها من أكواخ الحصير والقش. وتخصصت في صناعة الصابون وصبغة النيلة الزرقاء (Indigo blue) التي تستخدم في تلوين الثياب. كما وأنها ظلت مركزاً مهماً للقوافل وتجارة العبور خلال تلك الفترة. ومما ساعد على ذلك وقوعها في ملتقى طرق تمتد من الجنوب للشمال والغرب بإتجاه وادي النيل وتواصل المسير شمالاً...درب الأربعين، فمسالك عبور صحراء بيوضة والطرق النيلية (البرية والنهرية) (Hakem Op.cit:151). ومن الآثار المعمارية لهذه الفترة قبة الفكي الأمين بجزيرة إسلانج على بعد 24 كيلومتر شمال أم درمان. فقد بنيت على النمط الفونجي. وقام هذا الفقيه بدور كبير لدعم الثورة المهديّة إبان حصار المهديين للخرطوم عام 1885م (Ahmed2011:1127-1128) (لوحة:7). ومن آثار هذه الحقبة مسجد بقرية الشيخ الطيب على بعد 30 كيلومتر شمال أم درمان وعلى مقربة منه توجد آثار لخلوة قديمة. وهذه القرية للشيخ أحمد الطيب السمانى أحد أبرز الفقهاء الذي تتلمذ عليهم الإمام محمد أحمد المهدي في منتصف القرن التاسع عشر (Ahmed.Op.cit:1130).

خاتمة:

ومما سلف إirاده ، من الواضح أن ثمة صلات ثقافية وحضارية بادئة للعيان بين مختلف المجموعات السكانية التي قطنت السودان القديم (كوش) منذ آجال موعلة في القدم . وتاريخ أم درمان الحضاري كما كشفت عنه المعثورات الأثرية ذو صلة وثيقة العُرى بالعديد من أجزاء السودان القديم. وتؤمى كل الشواهد الأثرية المتوفرة إلى قواسم حضارية مشتركة في العادات والتقاليد والفنون لسكان هذا القطر المترامي الأطراف. وهذه الخاصية الفريدة لا تجترحها إلا أمة تشعر بتمايز عن غيرها من الأمم. وهذا لا يتأتى بالطبع إلا ببلوغ الحد الأدنى من التجانس الثقافي والحضاري الذي يسمح بوجود كيان معنوي جدير بأن ينعت بـ «الشخصية القومية» ، بغض النظر عن الولاءات العرقية والجهوية والعقدية . وهذا ما كان من شأن مدينة أم درمان، السودان المصغر منذ عشرات القرون .

قائمة المراجع:

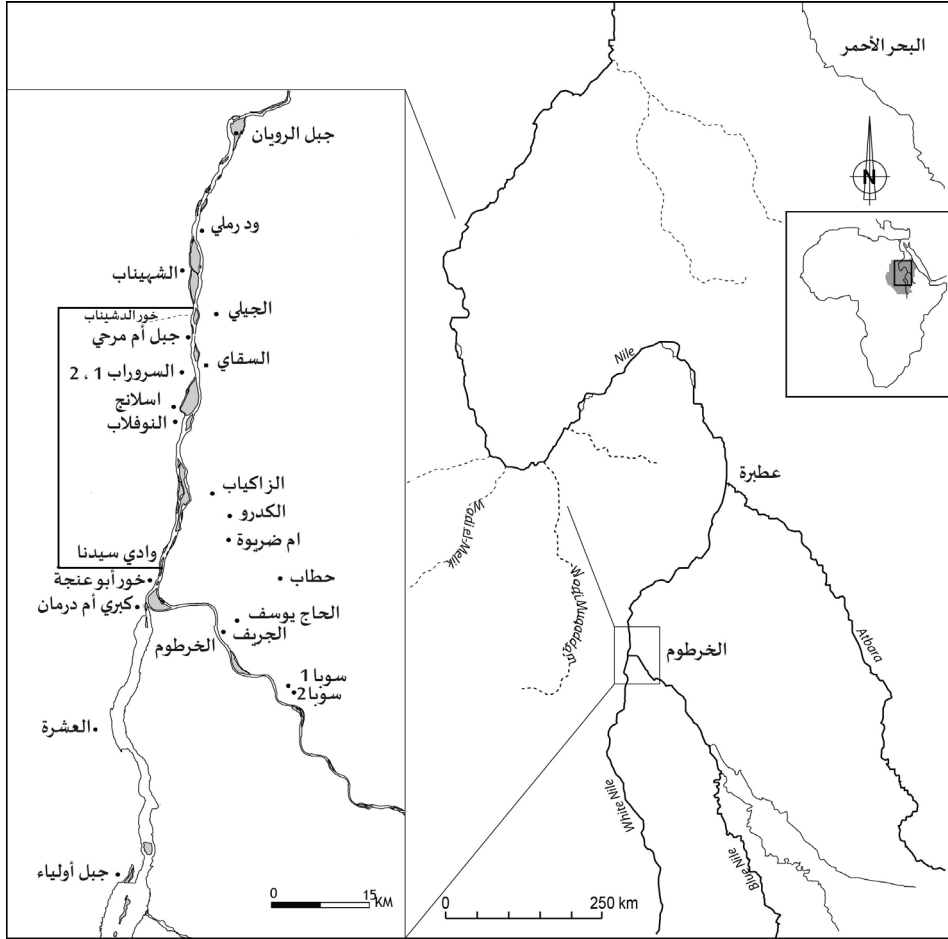
أ/المراجع العربية:

- (1) خبير، عبد الرحيم محمد 2005. المنجزات الفكرية والتقنية للحضارة السودانية. مجلة جامعة جوبا للآداب والعلوم، العدد الرابع، يوليو: 2005-22.

ب/ المراجع الأجنبية:

- (2) Ahmed, S.B. 2010. The Archaeological and Ethnographical Reconnaissance in the Sabaloka Area (Western Bank of the Nile, North of Omdurman District). Fourth Cataract and Beyond. Proceedings of the 12th International Conference for Nubian Studies (eds. J. Anderson & D. Welsby). Belgium: 1125-1133.
- (3) Arkell, A. 1949. Old Stone Age in the Anglo-Egyptian Sudan, Khartoum.
- (4) Arkell, A. 1949. Early Khartoum. Oxford University Press, London.
- (5) (4). Arkell, A. 1953. Shaheinab. Oxford University Press, London.
- (6) Babiker, F.A. 1884. Research into Mortuary Practises in Sudanese Prehistory and Early History : Bauda Site Cemetery as a case study. Unpublished Ph.D. dissertation, University of Reading.
- (7) Caneva, I. 1983. Pottery Using Gatherers and Hunters at Saggai (Sudan): Preconditions for Food Production. Origini XI. Rome.
- (8) Elamin, Y. and Mohammed-Ali Abbas 2004. "Umm Marrahi : An Early Holocene Ceramic site north of Khartoum (Sudan)", Sahara vol. 15: 97-110
- (9) El-Hassan, A. 2006. Jebel Um Marrihi: Post-Meroitic and Early Medieval Site (c. 325-650 A.D.) in Khartoum Province (Sudan). Adumatu 13: 15-38.
- (10) Hakem, A.M. 1979. "University of Khartoum Excavations at Sarurab and Bauda, North of Omdurman", Meroitica 5: 151-155.
- (11) Khabir, A.M. 1981. Neolithic Ceramics in the Sudan, With Special Reference to Sarurab 2. Unpublished M.A. thesis, University of Khartoum.
- (12) Khabir, A.M. 1987. "New Radiocarbon dates for Sarurab 2 and the age of the Early Khartoum tradition", Current Anthropology 28: 377-380.
- (13) Khabir, A.M. 2008. "Physico-Chemical Analysis of Neolithic Pottery from Central Sudan", Adumatu 17: 33-42.
- (14) Magid, S.E. 1982. The Khartoum Neolithic in the light of Archaeobotany: A case study from Nofalab and Islang sites. Unpublished M.A. thesis, University of Khartoum.
- (15) Magid, S.E. 1989. Archaeoethnobotanical Case Study from the Central Sudan. Unpublished Ph.D. thesis, Bergen: University of Bergen.

- (16) Marshall,K. and A.Adam 1953.”Excavation of a mound grave at Ushara”
”,Kush1:40-46.
- (17) Mohamed-Ali,A.1982.The Neolithic Period in the Sudan,C.6000-2500.B.A.R.139.
- (18) Salvatori,S. et al.2014.”Archaeology at El-Khiday :New insight on the Prehistory and
History of Central Sudan”. Fourth Cataract and Beyond,Proceedings of the 12th In-
ternational Conference for Nubian Studies(eds. :J.Anderson& D.Welsby) Bel-
guim:243-257



(شكل 1: منطقة إمتياز المسوحات والتنقيبات الأثرية لجامعة الخرطوم بشمال غرب أم درمان.
صمم الخارطة أ.د. أزهرى مصطفى صادق: قسم الآثار بجامعة الخرطوم)



لوحة: (1) منظر للقطاع الشرقي من مربعات حفرة موقع السروراب:2شمال أم درمان



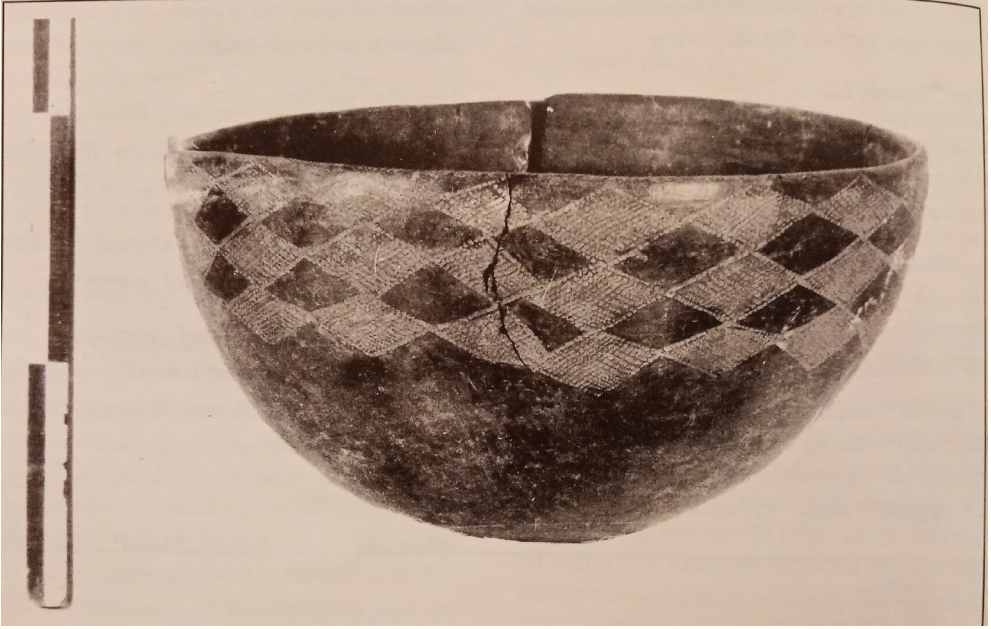
لوحة: (2) نماذج لكسر فخار من العصر الحجري الوسيط بشمال أم درمان، غرب النيل.



(لوحة:3) نماذج لكسر فخار من العصر الحجري الحديث بشمال أم درمان، غرب النيل.



(لوحة:4) مقبرة تلية (M52) خلال حفرة موقع جبل أم مرعي (ع):الفترة المتأخرة لما بعد عصر دولة مروى.



(لوحة:5) طاسة نصف كروية سوداء لامعة مزخرفة بحزوز أشكال هندسية ملئت بصبغ أحمر، موقع جبل أم مرحى المقبرة رقم «70».



(لوحة:6) تميمة لحتحور بتزجيح أخضر: المقبرة غمرة22:موقع جبل أم مرحى.



(لوحة:7) قبة الفكي الأمين في جزيرة إسلاج، العهد التركي-المصري.